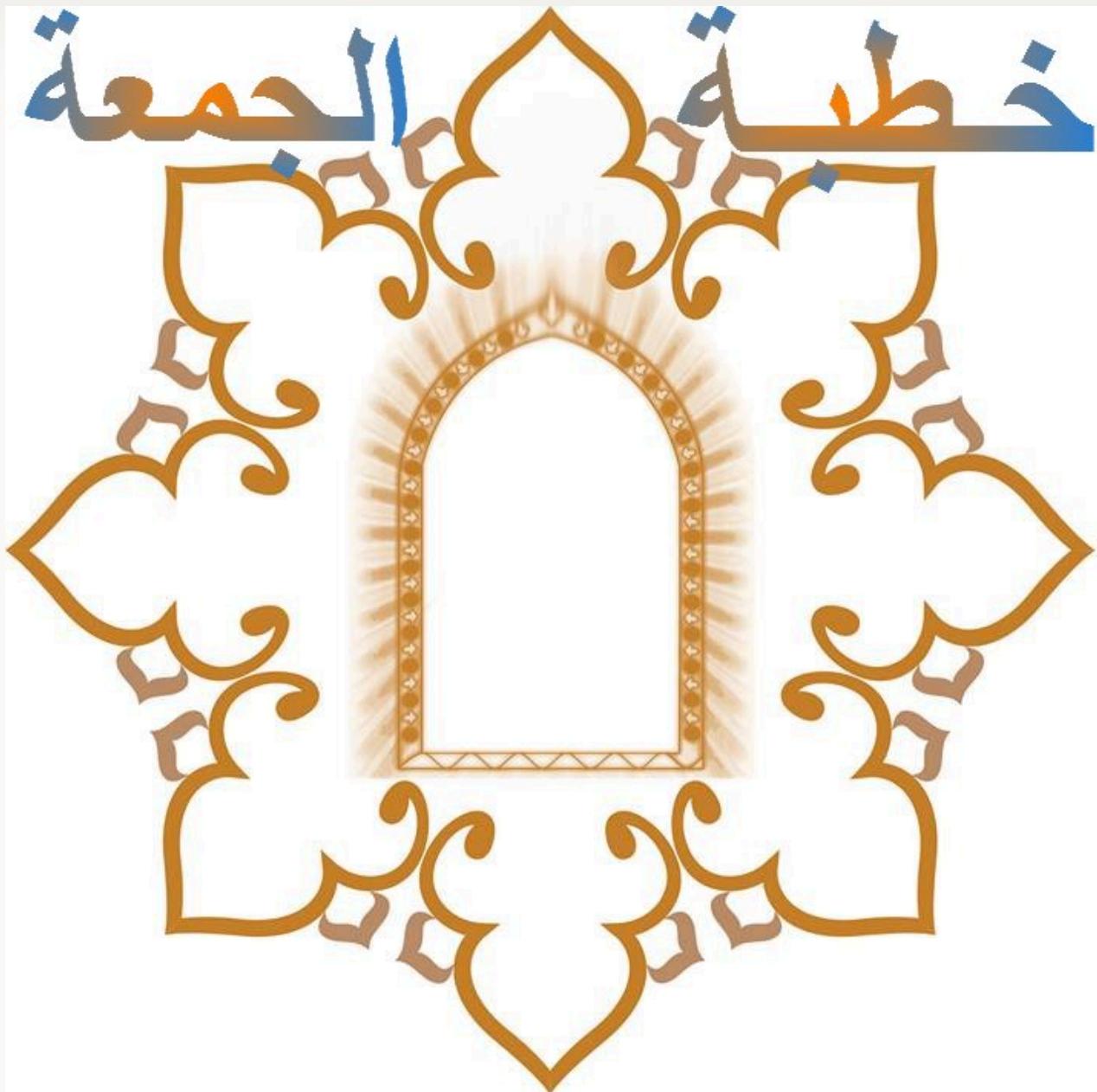


من أخلاقنا في الجهاد - الثبات

الكاتب : رابطة خطباء الشام

التاريخ : 20 أكتوبر 2014 م

المشاهدات : 5667



رابطة خطباء الشام

Sham Khotaba Association

مقدمة: كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: (اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ التَّبَاتَ فِي الْأَمْرِ)[1]

وقد تحقق ذلك في حياة النبي صلى الله عليه وسلم واقعاً ملماً، فكم لقي النبي من أنواع الأذى والصدِّ وأسباب اليأس، ولكنه صبر وثبت حتى لاقى ربه، وتابع المسيرة من بعده أصحابه رضوان الله عليهم حتى أوصلوا دين الله إلى بقاع الأرض .

والذي ينبغي أن تكون عليه اليوم هو متابعة المسيرة مهما لقينا من إرباء وصدِّ، ومهما واجهنا من أسبابٍ لليأس والقنوط.

عنصر الخطبة:

1 - التجلد للعدو.

2 - الذكر والثبات.

3 - الدعاء من أسباب الثبات:

- حال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر.

- حال النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق.

4 - المعصية تؤثر في الثبات:

- إرشاد الله للصحابة في غزوة أحد.

5 - عدم الاغترار بالباطل.

6 - طريق الحق طويل.

1 - التجلد للعدو:

نفي النبي صلى الله عليه وسلم عن تمني لقاء العدو، وذلك لأن المقصود من لقاء العدو ومقارعتهم هو نصرة الإسلام، واللقاء قد يفضي إلى عكس ذلك فنفي عنه، أو لعل الكراهة مختصةً بمن يثق بقوته ويُعجبُ بنفسه[2]

ومع ذلك فإنه أوصى بالثبات إن حصل اللقاء، فقال صلى الله عليه وسلم: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ، لَا تَتَنَزَّلُوا لِقَاءَ الْعَدُوِّ، وَاسْأَلُوا اللَّهَ الْغَافِيَةَ، فَإِنَّا لَقِيتُمُوهُ فَاصْبِرُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ الْجَنَّةَ تَحْتَ ظِلَالِ السُّيُوفِ، ثُمَّ قَامَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَالَ: (اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الْكِتَابِ، وَمُجْرِيَ السَّحَابِ، وَهَازِمُ الْأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ، وَانْصُرْنَا عَلَيْهِمْ).[3]

لذلك أمر الله سبحانه عباده بالثبات حين اللقاء فقال:

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيْتُمْ فِيهِ فَاثْبِتُوْا وَإِذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ) الأنفال 45

قال ابن كثير رحمة الله: هذا تعلیمُ اللَّهِ عِبَادُهُ الْمُؤْمِنِينَ آدَابَ الْلِقَاءِ، وَطَرِيقَ الشُّجَاعَةِ عِنْدَ مُواجهَةِ الْأَعْدَاءِ.[4]

وقال القرطبي رحمة الله:(فَاثْبُتوا) أَمْرٌ بِالثَّباتِ عِنْدَ قِتَالِ الْكُفَّارِ، كَمَا فِي الْآيَةِ قَبْلَهَا النَّهْيُ عَنِ الْفِرَارِ عَنْهُمْ، فَالْتَّقِيُّ الْأَمْرُ وَالنَّهْيُ عَلَى سَوَاءٍ. وَهَذَا تَأكِيدٌ عَلَى الْوُقُوفِ لِلْعَدُوِّ وَالْتَّجَلِيلُ.[5]

2 – الذكر والثبات:

الله سبحانه وتعالى قرَنَ الثباتَ في الحرب بكثرة ذكره (فَاثْبُتوا وَذَكُّرُوا اللَّهَ كَثِيرًا)، وهنا لطيفة من اللطائف نجدها في قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْحَدِيثِ الْقَدِيسِيِّ: (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظُنُونِ عَبْدِيِّ بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرْنِي،...).[6]

ومن كان الله معه فلن يُغلب؛ فالMuslimون يستمدون قوتهم من الله (إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ) هود 66، والأعداء يستمدون قوتهم من الشيطان (إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا) النساء 76

(الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتَلُوا أُولَئِيَّةِ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا) النساء 76

3 – الدعاء من أسباب الثبات:

قال تعالى: (وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُوْبِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبَرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَّ مُوْهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ...) البقرة 250 – 251

ولا شك أن الدعاء والتوجه إلى الله – تعالى – في مثل هذه الحال مما يزيد المؤمن المجاهد قوًّا وعزيمةً ومصابرةً للشدائِدِ.[7]

و خاصة إن كان العدد قليلاً، كما كان حزب الإيمان من أصحاب طالوت في هذه الآية[8] فكيف لو اجتمع قلة العدد مع قلة الناصر مع كثرة الخايل مع قوة العدو؟!

وهذا ما أرشد الله إليه المسلمين في غزوة أحد وقد أصحابهم ما أصحابهم، فضرب لهم مثل الأنبياء السابقين ومن قاتل معهم، وكيف صبروا على ما أصحابهم في سبيل الله وماذا كان قوله؛ فقال تعالى:

(وَكَأَيْنُ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهُنَّا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ * وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا أَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللَّهُ تَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسْنَ نَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ*) آل عمران 146 – 148

فكأن الله يقول لهم: [فهلا فعلتم وقلتم مثل ذلك يا أصحاب محمد؟ فأجاب دعاهم وأعطاهم النصر والظفر والغنية في الدنيا، والمغفرة في الآخرة إذا صاروا إليها. وهكذا يفعل الله مع عباده المخلصين التائبين الصادقين الناصرين لدینه، الثابتين عند لقاء عدوه بوعده الحق، وقوله الصدق: (وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ) يعني الصابرين على الجهاد].[9]

حال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ بَدْرِ:

وهذا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ بَدْرٍ يَضْرُبُ إِلَى اللَّهِ بِالدُّعَاءِ وَقَدْ رَأَى كَثْرَةَ عَدُوِّ الْمُشْرِكِينَ وَقَلْةَ عَدُوِّ الْمُسْلِمِينَ، فَكِيفَ كَانَ حَالَهُ؟

روى مسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: (لما كان يوم بدر نظر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ

وهم ألف، وأصحابه ثلاث مائة وتسعة عشر رجلاً، فاستقبل النبي صلى الله عليه وسلم القبلة، ثم مد يديه، فجعل يهتف بربه: "اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض"، فما زال يهتف بربه، ماداً يديه مستقبل القبلة، حتى سقط رداوه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا النبي الله، كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجذب لك ما وعدك، فأنزل الله عز وجل: {إذ تستغثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين} الأنفال: 9

فأمده الله بالملائكة، قال أبو زمبل: فحدثني ابن عباس، قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتند في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقياً، فنظر إليه فإذا هو قد خطأ أنفه، وشق وجهه، كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري، فحدث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: "صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة"، فقتلوا يومئذ سبعين، وأسرعوا سبعين،...)[10]

وقد قال الله عز وجل بعدما بشر المؤمنين بالملائكة: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيْتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُؤْلُهُمُ الْأَدَبَارَ) الأنفال: 15

حال النبي صلى الله عليه وسلم يوم الخندق:

ويوم الخندق يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ينقل التراب، وقد وارى التراب بياض بطنه: (لولا أنت ما اهدينا، ولا تصدقنا ولا صلينا، فأنزل السكينة علينا، وثبت الأقدام إن لاقينا، إن الألى قد بعثوا علينا، إذا أرادوا فتنة أبینا) [11]

4 - المعصية تؤثر في الثبات:

إن الذنوب والإسراف في الأمور من أسباب البلاء والخذلان، وإن الطاعة والاستقامة من أسباب الثبات والنصر والفرح، قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّصُّرُوا اللَّهُ يَنْصُرُكُمْ وَيُنَتَّبِتُ أَقْدَامَكُمْ) محمد: 7

ذكر الله - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أن المؤمنين، إن نصروا ربهم، نصرهم على أعدائهم، وثبتت أقدامهم، أي عصّهم من الغرر والهزيمة.

وقد أوضح هذا المعنى في آيات كثيرة، وبين في بعضها صفات الذين وعدهم بهذا النصر كقوله تعالى: (وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يُنَصِّرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ) الحج: 40.

إرشاد الله للصحابية في غزوة أحد:

ولهذا أرشد الله أصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم الذين هزموا في غزوة أحد بمعصيتهم أمر النبي صلى الله عليه وسلم في النزول من على جبل الرماة، أرشدهم إلى أن يقولوا كما قال أصحاب الأنبياء السابقين: (وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَتَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصَرْتَنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ) آل عمران: 147

وهذا ما ينبغي أن يكون عليه حال المجاهدين على الجبهات في أن يرجعوا إلى أنفسهم ويتهموها بالقصير والإسراف، فإنما يُؤتى المسلمين من قبل تقصيرهم.

قال صاحب تفسير المنار رحمه الله:

[ومنها أن الذنوب والإسراف في الأمور من أسباب البلاء والخذلان، وأن الطاعة والاستقامة من أسباب النصر

والفالح ; ولذلك سألوا الله أن يمحو من نفوسهم أثر كل ذنب وإسراف، وأن يوفقهم إلى دوام الثبات.[12]

ولذا علم الله من عباده صدقًا هيأ لهم كل أسباب الثبات ومنها إنزال الملائكة تقاتل معهم، قال تعالى: (إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَيْكُمْ فَتَبَتَّلُوا إِذْنَنَّ أَمْتُوا سَلَّقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبُ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ) الأنفال 12

5 – عدم الاغترار بالباطل.

إن الباطل مهما علا ولجلج فإنه زاهق، والحق مهما ضعف فإنه منتصر، كيف لا والله من وراء الحق، (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ) لقمان 30

ودولة الباطل ساعة، ودولة الحق إلى قيام الساعة؛ لذلك قال الله تعالى: (لَا يَغْرِنَكَ تَقْلُبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَنَاعَ قَلِيلٌ ثُمَّ مَاْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَيُسْسَ المِهَادُ*) آل عمران 196 – 197

فالمؤمنون مهما رأوا من تحشُّد الأعداء ضدهم لا يزددهم ذلك إلا إيماناً وثباتاً، كما قال الله جل في علاه: (الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشُوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسِبْنَا اللَّهُ وَنَعْمَ الْوَكِيلُ) آل عمران 173

فرجعوا منتصرين غالبين غانمين، (فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ) آل عمران 174

6 – طريق الحق طويل.

لا تستطع الطريق ..

الطريق طريق تعب فيه آدم

و ناح لأجله نوح ..

و رمي في النار الخليل

و أضجع للذبح إسماعيل ..

و بيع يوسف بثمن بخس و لبث في السجن بضع سنين

و نشر بالمنشار زكريا ..

و ذبح السيد الحصور يحيى

و قاسي الضرر أيوب ..

و زاد بكاء داود

وعالج الأذى محمد- صلى الله عليه وسلم -

ولكنكم تستعجلون ..

إنما يقطع الطريق ويصل المسافر بلزوم الجادة وسير الليل، فإذا حاد السائر عن الطريق أو استطاله ونام الليل فمتهي يصل

إلى المقصود؟ متى!

أفيفوا استيقظوا وخذوا من الأسلاف *** من قبلكم عظة تنير قلوبكم وتبصر
رومأن في جبروتها وغرورها *** رضخت لمن حملوا الضياء وحرروا
دحر البغاء بظلمهم وشرورهم *** فخذوا دروسا منهم واستعبروا
ولن يحاسبك الله على عدم بلوغ الغاية، وإنما يحاسبك على عدم الثبات عليها.

=====

[1] سلسلة الأحاديث الصحيحة / 3228

[2] فتح الباري / 13/224 / باب كراهة تمني لقاء العدو

[3] البخاري / 2965، ومسلم / باب كراهة تمني لقاء العدو / 1742

[4] تفسير ابن كثير 4/70

[5] القرطبي 8/23

[6] البخاري / 7405 – مسلم / 2675

[7] تفسير المنار 4/142

[8] انظر تفسير ابن كثير 1/669

[9] تفسير القرطبي 4/231

[10] مسلم / 1763

[11] البخاري – الفتح 6 (2837) وهذا لفظه. ومسلم (1803) .

[12] تفسير المنار 4/142

المصادر: